

المحور الرابع: النظرية الماركسية في علم الاجتماع (المحاضرة 6)

أولا - الجذور الفكرية لنظرية الصراع:

تمثل نظرية الصراع البديل الأساسي للوظيفية، كمدخل للتحليل البناء العام للمجتمعات، وأصبحت بشكل متزايد ذات شهرة وأهمية في علم الاجتماع الحديث، بحيث تنظر نظرية الصراع إلى المجتمع، باعتباره حاجة تناضل الجماعات المختلفة داخل المجتمع لها مصالح وقيم متصارعة، ويؤدي التنافس بينها إلى استمرارية عملية التغير، واستخدام القهر لتحقيق النظام الاجتماعي. منظرين أن الأنساق الاجتماعية، تتضمن مواقف صراعية تنسم بعدم التوازن في القوى. تظهر كعملية في الحياة الاجتماعية، نتيجة لاختلاف الأهداف التي تجعل المجتمع في حالة دائمة من التغير. والصراع على اعتبار إنه يؤدي إلى تحقيق الفوائد للمجتمع، كما يميلون إلى افتراض أن النظام الاجتماعي العام، يتم فرضه بالقوة على الضعفاء، عن طريق من يملكون القوة في المجتمع الذي يبقى في حالة مستمرة من التغير، مما يتطلب دراسة وتحليل مصادر هذا التغير الاجتماعي، في جميع المجتمعات وفق نموذج الصراع، بهدف التعرف على أسباب اكتساب بعض الجماعات للقوة، والاحتفاظ بالسيادة على الجماعات الأخرى، وكيف تتعرف الجماعات على أساس مصالحها الشخصية، وقد تلجأ أحيانا إلى القوة لتحقيق أهدافها. ويستخدم في ذلك منظروا هذا الاتجاه بعض التساؤلات الهامة مثل: ماهي الجماعات التي تعد أكثر قوة داخل المجتمع؟ وما هي الجماعات التي تعد أكثر ضعفا؟ وكيف تستفيد الجماعات الأقوى من النظام الاجتماعي القائم؟ وكيف يتحقق الضرر للجماعات الضعيفة وغيرها من التساؤلات التي جسدت التوجه العام للصراع، ضمن ثلاث افتراضات مركزية متصلة فيما بينها تظهر فيما يلي:

الافتراض الأول: هو أن الناس يمتلكون عددا من المصالح الأساسية، وهي تمثل أشياء يريدونها ويحاولون تحقيقها، وهي ليست معرفة من قبل المجتمعات فقط، ولكنها عامة بالنسبة لها جميعها، أن منظري الصراع ليسو فقط صرحين دائما بوجهة النظر هذه حول الإنسان ولكنها تظهر في جميع أنحاء أعمالهم.

الافتراض الثاني: وهو الافتراض المركزي بالنسبة لجميع متطورات الصراع، يتمثل في التركيز على القوة باعتبارها تقع في صميم العلاقات الاجتماعية، أن منظري الصراع لا ينظرون إلى القوة على أنها فقط نادرة ومقسمة بشكل غير متساوي، ولهذا مصدرا للصراع. لكنها أيضا قهرية بالضرورة، أن هذا التحليل، يفقد في المقابل، إلى الاهتمام بتوزيع المصادر التي تمنح الناس قوة أكثر أو أقل.

الافتراض الثالث: المميز في نظرية الصراع، هو أن القيم والأفكار يتم النظر إليها كأسلحة تستخدم من قبل الجماعات المختلفة لتدعم أهدافها، أكثر من كونها وسائل لتعريف هوية المجتمع وأهدافه ككل. إن منظري الصراع يمتلكون ميلا كبيرا للحديث عن الأفكار كجانب من مصالح الجماعة، وبشكل خاص تحت مفاهيم "الأيديولوجيا والشرعية".

1- رائد نظرية الصراع التقليدية :

تمثل نظرية الصراع في علم الاجتماع، نتاجا من أعمال كارل ماركس بالفعل، أن الماركسية ونظرية الصراع تناقشان في بعض الأحيان باعتبارهما مترادفتان، كما أنه لا يوجد مثالا أفضل من الماركسية على الارتباط الوثيق بين أفكار المنظر وأحداث العالم الواقعي، حيث أنه باسم أفكار كارل ماركس حارب الثوريين حول العالم أشكالا قائمة من المجتمع، كما حكمت الأحزاب الشيوعية قطاعا كبيرا من الناس .

إذ يعد كارل ماركس K.Marx (1818-1883)، من أهم العلماء الأوائل الذين كان لهم الفضل في ظهور منظور الصراع، فقد درس ماركس المجتمعات القديمة والمعاصرة بهدف توجيه مجرى التاريخ، وذهب إلى أن النسق الاقتصادي يعد المصدر النهائي للسلوك الاجتماعي والنظم الاجتماعية . حيث كان يسعى إلى تفسير التغيرات التي كانت تطرأ على المجتمع خلال الثورة الصناعية، وعندما كان ماركس في مقتبل العمر، وضعت أنشطته السياسية وجهها لوجه مع السلطات الألمانية ، وبعد إقامة قصيرة في فرنسا، استقر منفيًا في بريطانيا بصورة دائمة، وقد شهد ماركس نمو المصانع وتوسع الإنتاج الصناعي، وما نجم عن كليهما من مظاهر التعاون وعدم المساواة، وعبر في كتاباته عن اهتمامه بالحركة العمالية في أوروبا والأفكار الاشتراكية ، وتشعب إنتاجه الفكري ليشمل موضوعات أساسية متنوعة، وتركزت معظم أعماله على القضايا الاقتصادية، غير أن حرصه على ربط المشكلات الاقتصادية بالمؤسسات الاجتماعية، قد أثرى الطروح السوسيولوجية التي تضمنتها مؤلفاته العديدة، بل أن أقصى نقاده لا يملكون إلا الإقرار بأن أعماله تمثل إسهاما مهما في تطور علم الاجتماع ، ويمكن إجمال هذه الأعمال ضمن هذه المحاور أو المفاهيم التي تعتمد عليها النظرية الماركسية للصراع.

2- المفاهيم الأساسية للنظرية الماركسية للصراع :

● العلاقة الجدلية بين البناء المادي والبناء الفوقي للمجتمع:

كان الهدف الأساسي عند ماركس، تحليل العلاقة بين ظروف وأوضاع الحياة المادية وأنماط الفكر، مفترضا أن الوجود يحدد الوعي وأكد ذلك في قوله : " واقعنا الاقتصادي و الاجتماعي هو الذي يحدد وعينا وليس وعينا يحد واقعنا، أي أن البناء المادي للمجتمع والذي يتجسد في موارده الطبيعة والبشرية، ومصادر الرزق ووسائل استغلاله الطبيعية، هو الذي يحدد ماهية البناء الفوقي للمجتمع، أي يحدد أفكار وإيديولوجية وفلسفة ودين وقيم وأخلاقية المجتمع، تلك العلاقة التي تقوم على مبدأ متطور ومستمر، أثناء تطور المجتمع عبر التاريخ القائم على التفاعل الجدلي، وخاصة في المرحلة الحديثة في عصره، والتي ارتبطت بالتصنيع والاستغلال الرأسمالي، والهيمنة الاقتصادية واغتراب الطبقة العاملة عن الطبيعة، وأدوات الإنتاج وظهور التناقضات وتزايد المشكلات داخل النظام الرأسمالي الاقتصادي إلى تغيرات في الوعي ومن ثم الثورة، مما يدفع بالمجتمع نحو الاشتراكية، حيث يولد الإنسان الطبيعي من جديد، ويبين هذا النموذج الذي طبق فيه ماركس الفكرة الجدلية عن التطور التاريخي للمجتمع، ووضوح علاقات التفاعل والتأثير المتبادل بين البناء الفوقي والبناء التحتي، وهكذا

فالصراع بين الطبقات وبالتالي الصراع بين الدول هو محصلة التطور الاقتصادي، والذي بدوره يؤدي إلى تغير ملحوظ في البناء الاقتصادي، يصاحبه تغير ثوري في الوعي الإنساني الاجتماعي .

• الاغتراب والصراع الاجتماعي:

عندما أراد ماركس تفسير عوامل المنافسة، والصراع والتناقض بين طبقات المجتمع، إستعمل مفهوم الاغتراب الاجتماعي في نظريته العامة، والذي يعرفه بأنه ظاهرة اجتماعية، يشعر فيها الإنسان مغتربا وبعيدا عن الشيء الذي أوجده وخدمه وضحي من أجله ، يشعر العامل مثلا مغتربا عن رب العمل، يشعر بالحواز النفسية والاجتماعية التي تفصله عنه، كما يشعر بالاغتراب عن السلعة التي أنتجها وخلقها وصرف الجهود والأتعاب عليها طالما أنها لا تعود إليه بل تعود إلى رب العمل الذي يمتلك وسائل الإنتاج، ذلك أن جهود العامل ترجع مردها إلى رب العمل وليس إلى العامل، فالعامل غالبا ما يبذل جهود يزيد ثمنها عن الأجر أو المكافأة المادية الممنوحة له، والفرق بين قيمة الجهود وقيمة ما يتقاضاه العامل يسمى بفائض القيمة *Surplus value* ، الذي يذهب إلى المنتج الرأسمالي وبمرور الزمن يتضاعف هذا الفائض، ويجد رب العمل نفسه ميسورا إلى درجة يستطيع فيها توسيع القاعدة الإنتاجية، وزيادة كميات الإنتاج، لكن تراكم رأس المال عند المنتج، يؤدي بالنهاية إلى إغتراب العامل عن المنتج، ونشوء الصراع والمنافسة بينهما .

• الطبقات الاجتماعية والصراع الطبقي:

تعتبر الدراسة التحليلية للطبقات الاجتماعية، والصراع الطبقي لماركس من أكثر الدراسات التحليلية التي أجراها حول المجتمع والدولة والاقتصاد والسياسة، فقد ذكر بأن التاريخ البشري هو تاريخ الصراعات بين الطبقات الاجتماعية، التي تمثل مجموعة من الأفراد تتميز عن غيرها بأساليب معاشية واجتماعية وثقافية متشابهة، لها أهميتها في تماسكها ووحدتها وتكثيف نضالها ضد الطبقات الأخرى، خصوصا إذا كانت معرضة للظلم والتعسف والقهر الطبقي، والطبقات الاجتماعية هي: عبارة عن جماعات من الناس، تستطيع إحداها استغلال عمل الأخرى، تبعا لتباين موقع كل منها في نسق الاقتصاد القائم في المجتمع ، لأن علم الاجتماع عند ماركس يمكن تلخيصه بأنه علم اجتماع صراع الطبقات. حيث توجد هذه الطبقات الاجتماعية بصورة جلية في المجتمعات القديمة والإقطاعية والرأسمالية، أي عبر المراحل التاريخية، حدد فيها ماركس ملامح التقدم التي بدأت بمجتمعات الصيادين والحصادين البدائية الشيوعية، وانتقلت عبر نظم العبودية القديمة، ونظم الإقطاع القائمة على تقسيم العمل بين ملاك الأراضي وعمال السخرة، وكان ظهور التجار والحرفيين مؤشرا على بداية نمو الطبقة التجارية أو الرأسمالية، التي أخذت تحل مكان ملاك الأراضي من النبلاء .

وجود هذه الطبقات؛ يرجع إلى العامل المادي، فهذا العامل هو الذي يقسم أبناء المجتمع إلى طبقتين اجتماعيتين متخاصمتين، طبقة تملك وسائل الإنتاج، وطبقة لا تملك وسائل الإنتاج، بل تملك الجهود البشرية التي تعرضها إلى الطبقة المالكة لوسائل الإنتاج أو الطبقة المسيطرة، وقد اعتمد ماركس على مبدأ الديالكتيك في تفسير التحول الاجتماعي

تفسيراً تاريخياً مادياً، وأعتبر ظاهرة الطبقات الاجتماعية من أهم الظواهر المؤدية للصراع والثورة والتحول الحضاري والاجتماعي، وذلك بفعل الوعي الطبقي الذي يظهر بين أبناء الطبقة العاملة في المجتمع الرأسمالي، وهو الذي سبب التماسك الطبقي، وإن هذا التماسك كما يعتقد هو الذي يقوي الطبقة ويدفعها إلى إعلان الثورة والتمرد ضد الطبقة المستقلة، وهنا يسقط المجتمع ويتحول إلى نمط آخر يتميز بالتححرر والتقدم الاجتماعي بالنسبة لما كان عليه سابقاً، من خلال الصراع الطبقي الذي يمثل محرك التطور الاجتماعي في المجتمعات الطبقية، فإذا كان التناقض الاجتماعي بين قوى الإنتاج وعلاقات الإنتاج هو الذي يحرك البناء نحو التغير، فإن الصراع الطبقي ينجز هذه المهمة، فالطبقية البورجوازية هي التي قادت التغير من الإقطاع إلى الرأسمالية، فإن الطبقة العاملة هي التي ستقود التحول نحو الاشتراكية.

● الثورة الاجتماعية:

كان يعتقد ماركس أن المجتمع لا يمكن تغييره نحو الأحسن والأفضل، ولا يمكن إزالة الظلم والتعسف الاجتماعي عنه إلا من خلال الثورة الاجتماعية، والثورة الاجتماعية بالنسبة لماركس هي: تغير شامل يعتري النظام والمؤسسات الفوقية والتحتية، تقوم به الطبقة المظلومة والمغلوبة على أمرها، بعد تعرضها للاستغلال والظلم واليهوان وجرح الكرامة، والثورة الاجتماعية التي يمكن أن تقوض أركان نظام الحكم وتقضي على الاستبداد، هي الثورة التي تتميز بأسلوب القوة والعنف الذي يستعمل ضد مصادر التخلف والشر والظلام، حيث كان يدافع ماركس عن مصالح وأمان ومستقبل الطبقة العاملة في المجتمع الرأسمالي، وكان يعتقد بأن هذه الطبقة لا يمكن أن تتخلص من الظلم والاستبداد، وتنال حقوقها كاملة إلا من خلال الثورة، وذلك للإحاطة بالنظام الرأسمالي وإقامة مجتمع جديد لا طبقات فيه، ولا يعني ذلك أن التفاوت يتلاشى تماماً بين الأفراد، بل أن المجتمع في رأيه لن ينقسم إلى طبقة صغيرة تحتكر السلطنتين الاقتصادية والسياسية، وجماهير الشعب الواسعة التي لا تحقق إلا القليل من الثروة الناجمة عن عملها المتعب، وسوف يزول النظام الاقتصادي الجديد إلى ملكية جماعية، وينشأ مجتمع أكثر إنسانية من ذلك الذي نعرفه، وفي مجتمع المستقبل كما يرى ماركس، سيكون الإنتاج أكثر تقدماً وكفاءة مما هو في ظل النظام الرأسمالي.

وعموماً نقول: إن النظرية الاجتماعية عند ماركس، تعتبر بشكل أساس نظرية في التغير والتطور، أنها تنظر إلى الوراء نحو التاريخ الكلي، وإلى الأمام نحو المستقبل، وتزعم أنها تسعى إلى تغيير كل منهما، يوضح ماركس بأن نظاماً اقتصادياً معيناً يحمل في داخله جذور التغير حيث منطقته وطريقته عمله بالضرورة ينتجان نجاحه.

ثالثاً- تقييم ونقد لنظرية الصراع:

تمثل نظرية الصراع؛ حلقة وصل أساسية بين كل من النظريات السوسيولوجية الكبرى والصغرى، ونقطة إنطلاق للعديد من النظريات السوسيولوجية المعاصرة، كما فتحت المجال أمام الكثير من روادها لتحديث الإطار التصوري، الذي يجب أن تقوم عليه النظرية

السويولوجية العامة، وبالرغم من هذه الأهمية وغيرها إلا أنها تعرضت لعدة انتقادات يمكن أن نوجزها فيما يلي :

- 1- إصرار نظرية الصراع على أن القيم والأفكار يجب أن يتم ربطها ببيئتها الاجتماعية، وليس أن تعامل باعتبارها ذات وجود مستقل.
- 2- إنها تتجنب تفسير الأشياء ببساطة بالاستناد إلى نتائجها، وتظهر كيف يمكن أن يحدث التغير بالفعل من خلال ردها السلوك الاجتماعي إلى مصالح الأفراد، و الطريقة القصدية والمنفعية التي يلاحقون بها مصالحهم.
- 3- إصرارها بأن القوة تمثل الهدف الأساسي للناس، وأنها خاصية أساسية للعلاقات الاجتماعية، يعتبر محدودا للغاية.